

المنفى

للمفكر الرّسّى نرسون
بقلم الأديب مصطفى مصلح

— لا ... لقد حلت أنك
عدت إلى المنزل بعد رحلتك
هذه، وشعرك قد تحول إلى لون
الثلوج البيضاء ...

ولكن « اكسينوف »
لم يهتم، إذ صور له الحبث أنها
ابتدعت هذا الحلم ابتداءً كما
تبقية بجانبها شأن بنات جنسها
لا يردن أن يعتمدن رجاھن .

وهكذا تركها ومضى إلى البلدة التي يريد هاتى إذا بلغ
منتصفها رسمت له الأقدار خطة ونفذتها، إذ ألقت
أمامه في الطريق صديقاً قديماً كان يعرفه دعاه لأن
يقضى الليلة معه في فندق صغير

وأخذ كل منهما يقص على الآخر ما مر عليه
من أيام حلوّة أو مرّة حتى إذا تأخر عليهما الوقت
صعد كل إلى حجرته

كان على « اكسينوف » أن يستيقظ في فجر
الصباح المقبل ليواصل رحلته المتعبة فنام قليلاً
ثم استيقظ ولما تتجاوز الساعة الثانية بعد منتصف
الليل فأمر خادم الفندق أن يهيء له جواداً وعربة،
ثم انطلق في جوف الليل البهيم بسرعة جنونية،
فقطع حوالى خمسة وعشرين ميلاً لم يستطع الجواد
المسكين أن يتابع مسيره بعدها

وفي نهاية هذه المرحلة وجد « اكسينوف »
فندقاً صغيراً وضع فيه رحاله وجلس يتناول فطوره
بشبهة منتظراً لإشراق الصبح الجليل، وبينما هو يتجه
يبصره إلى أقصى الطريق روعته أصوات عربة قادمة
وهي تدق أجراسها ذات الصليل المرتفع، أخذ يرقبها
حتى تبينها فإذا هي عربة البوليس يركبها ضابط
وبجانبه جنديان شاكي السلاح، فلم يهتم

كان يقيم في فلاديمير تاجر ثرى يدعى « إيفان
دريش اكسينوف » يذكره سكان هذه القرية،
إذ كان في شبابه سكيراً معربداً يثير الإعجاب في صدور
نساءها بشعره الطويل اللامع وصوته الجميل الحلو،
ولاشك أن فتيات القرية الطائشات قد فتحن حديثه
قبل أن يؤخذن بقوامه الطويل وصدره القوى
العريض .

ولكن « اكسينوف » لم يلبث أن استهواه
الوقار ونجبت إليه الرزانة فترك الطيش وودع لهو
الشباب ومفاسده، وسكن إلى بيته بعد أن تزوج
ينشد حياة الهدوء والراحة، ويعمل لإسعاد أولاده
وإرضاء زوجته .

وفي أحد أيام الصيف القانظ غزم التاجر على الرحيل
إلى قرية (ناذنى) لقضاء بعض أعماله التجارية، فأعد
عدته وحيا زوجته وهم بالخروج، ولكنها استوقفته
قائلة :

— إيفان ... لقد حلت الليلة حلاً مزعجاً ...
لا ترحل اليوم ...

فقهقه التاجر بشدة وهو يقول :
— بل قولى إنك تخشين أن أعرج في طريق
على حانة أو أغازل امرأة ...

ثم قذفاه إلى عربة البوليس كما لو كان قاتلاً حقاً ...
 كان إكسينوف بريثاً ... ولم يكن
 الخنجر خنجره ... ورغم أنه كان واثقاً من ذلك
 لم يستطع أن يمنع جسمه عن الارتعاش ، وصوته
 عن الاضطراب ... وأخيراً عن البكاء . لقد أخذوا
 كل ماله ... ثمانية آلاف وروبل هي كل ما يملك
 من ثروة ... وهام أولاء يرسلونه إلى أقرب سجن
 ليلقوه فيه ... ولاح له المصير الاسود الداكن الذي
 ينتظره ، فعاد مرة أخرى إلى البكاء بعد أن كف
 عنه . وراحت إشاعات القبض عليه تسرى مسير
 الرياح ، وصقلتها السنة الرواة وشفاه المحدثين ، حتى إذا
 بلغت أسماع زوجه المسكينة خيّل لها حقاً أنه قاتل
 مجرم فلم تعرف ما تفعله وضاعت الدنيا في وجهها
 ها هي ذى ترى زوجها ملقى في أعماق السجن
 وليس لديها ما يكفل لها السفر مع أولادها إليه ...
 وها هي ذى تجد المستقبل حالكاً كسواد الليل
 وتحاول الوصول إلى ثغرة من النور فيه فلا توفق
 لم تجد المسكينة إلا إراقة دماء وجهها فطلبت
 من أصدقاء زوجها ما تستطيع الوصول به إلى حيث
 ألقوه متهماً بأشنع تهمة ، حتى إذا بلغت السجن
 منعوها عن رؤيته ، فراحت ترجو وتتوسل وتمن
 فيهما إلى أن استطاعت أن تنال إذناً برؤيته
 بال لحظة التي شاهدت فيها زوجها مرتدياً ملابس
 السجن كاللصوص والقتلة ! لم تستطع احتمال هول
 ذلك اللقاء فأغمى عليها ... وعند ما أفاق جلست
 بجانبه تلتقط أنفاسها وهي تبكي بحرقة قائلة ...
 قصت عليه كل ما فعلته منذ رحيله ، وحدثها هو
 بالحقيقة كاملة ... وأخيراً سألته من خلال دموعها
 المنهمرة على خديها الذابلين :

« إكسينوف » بهم إذ كان التعب قد هاجمه والنوم
 ابتداء يداعب جفونه

ولكن الضابط تقدم منه يسأله عن اسمه وكيفية
 قضاء ليلته ... ولم هو منفرد ... وأين صديقه الذي
 نام معه في فندق واحد ؟ ... وأجابه التاجر على ذلك
 كله بحسن نية وأردف قائلاً :

— هل لك في قليل من الشاي ؟

ولكن الضابط لم يجبه وأخذ يسأله بخشونة
 عن اسمه وصناعته وغير ذلك من أسئلة رجل
 البوليس عند ما يمثل أمامه مجرم ، فعجب التاجر
 من كل هذه الأسئلة المتلاحقة ، ولكنه وصف له
 كل ما فعله ولماذا غادر الفندق قبل الصباح ...
 ثم سأله :

— ولكن لم كل هذه الأسئلة ؟ إنك تسألني
 كما لو كنت قاتلاً أو سارقاً ! ...

ولم يجب الضابط بأكثر من قوله :

— لقد وجد صديقك التاجر مقتولاً هذا
 الصباح ، وأنت الوحيد الذي تتجه إليه الشبهة
 ثم نظر إلى رجله وأمرها أن يفتش حوائثه ،
 وعندئذ ضحك إكسينوف من سذاجة هذا الشرطي
 وسمح له بما أراد ، وأخذ الجنديان يقلبان متاعه
 وهو ساكن لا يتحرك . على أن هدوءه لم يلبث
 أن انقلب رعباً وخوفاً ، ذلك أنه شاهد أحدهما
 يخرج من حقيبته خنجراً يقطر منه بعض الدم اللزج
 وعند ما رأى الضابط هذا المشهد صاح
 في التاجر :

— كيف تملل وجود هذا الخنجر في حقيبتك ؟

— لا أعرف ... لا أعرف ... إنه ليس لي
 وأمر الضابط رجله ، فوضعا القيد في يده

يداه من كثرة العمل، وانقلب شبابه الفض شيخوخة
هرمة، وزال ما كان يتمتع به من جاذبية طالما حبيته
إلى قلوب نساء قريته ... كان يمشى ببطء ...
لا يتكلم إلا قليلاً ... بل نادراً ولم يضحك أبداً
ولكنه أحياناً كان يتسم ابتسامة لا معنى لها

تعلم في مدة سجنه صناعة الأحذية وكانوا
يمطونه أجراً ضئيلاً تمكن بادخاره من شراء نسخة
من كتاب (حياة القديسين) . فكان يجلس كل
أوقاته يطالع فيه ... وفي أيام الآحاد يتوجه إلى شبه
الكنيسة القائمة هناك فيستمع إلى دروس الوعظ ،
وينشد معهم الأناشيد الدينية بصوته الذي كان
يحفظ بالبقية الباقية من جماله

كان مستقيماً ... هادئاً ... وقوراً ... فأحبه
الجميع وتمودوا على طاعته والاستماع لمشورته ، حتى
بات الحاكم بينهم لا مرد لحكمه ، وبات الجميع
يعطفون عليه وينادونه كأنه أبهم الكبير

وكرت الأيام تسير على وتيرة الملل والسأم حتى
جاء إلى النفي رجل ارتكب جريمة استحق عليها
ذلك ، فاجتمع حوله المنفيون يسألونه ويتنسمون
أخبار العالم ... أما « اكسينوف » فقد جلس بجوار
(الوارد الجديد) يستمع في صمت وفي تفكير ...
وراح هو يقص عليهم قصته ولكنهم كانوا متشوقين
لمعرفة اسم القرية التي جاء منها ليسألوه عن أخبار
ذويهم ، ولما لم يقل لهم سألوه :

— أخبرنا ... من أين أنت ؟

فأجاب :

— من قرية « فلاديمير » أيها الرفاق ... واسمى
هو « سيمونيش »

وعند ذلك رفع « اكسينوف » وجهه وقد برقت
عيناه سائلاً :

— والآن ماذا سنفعل ؟

— ليس أمامنا سوى القيصر نشكو له

— لقد أرسلنا له عريضة فلم تحز القبول

لم يجب (اكسينوف) بل رمق الأرض بنظرة

تأهية ذاهلة بينما اقتربت زوجته هامة :

— أوه يا اكسينوف الليتك لم تخرج في هذا

اليوم ... لقد حلمت أن شعرك سينقلب أبيض

كتلوج سبيريا ... ولكنك فحكت وسخرت مني

وأخذت تعبت بشعره في حنان ورفق ثم قالت :

— فابنا ... أيها العزيز ... قل لزوجتك

الحقيقة ... اعترف لها هل فعلت ذلك ؟

بكي الرجل ورفع رأسه ينظر إليها بحدة صائحاً :

— أنت ... أنت ... حتى أنت ! تظنين أنني قتلتك ؟

وأطرق إلى الأرض يئن ويتوجع فلم يبق

إلا على صوت الحارس يطلب انصراف الزائرين ...

وكان الوداع ... الوداع القاسي الذي لم يستطع

أحدهما أن يمنع الدموع النهمرة من عينيه أثناء

كان الوداع الأخير

وما كادت الزوجة المسكومة تتوارى عن عيني

(اكسينوف) حتى رفع وجهه إلى السماء قائلاً :

— إن الله وحده الذي يعلم الحق من الكذب

إليه وحده يجب أن نضرع ... وله يجب أن نشكو

ورجو

ومنذ تلك اللحظة لم يتظلم إلى إنسان ولم يسأل

مخلوقاً

وأخيراً صدر عليه الحكم فنفوه مع آخرين إلى

سبيريا حيث مكث هناك ستة وعشرين عاماً انقلب

في أثناء أعوامها الطويلة من سواده الجميل إلى بياض

ناصع ... تماماً كلون التلوج في سبيريا ، وتضخمت

تضحك ... كانت تخلق دائماً في الفضاء ... شاهد أطفاله صغاراً كما تركهم ... أحدهما لم يزل في مهده ، والآخر يكبره بقليل ... وسبحت أفكاره وحلقت في اللانهائية ... تذكر كيف رحل رحلته المشثومة ، وكيف قابل صديقه ، وعربة البوليس وهي تدوى بأجراسها ... وأخيراً ... القيد وهو يطوق يديه ... تراءت له الأعوام الطويلة التي قضاها في اللقي ... تلك التي أبدلت شبابه كهولة ... اللصوص ... اللصوص ... لقد سرقوا منه العمر كله فما بقي منه شيء ...

شعر أنه احتمل العذاب بدلاً من «سيمونيش» ذلك السجين الجديد الذي وثق «أكسينوف» من حديثه ونظراته من أنه هو القاتل ... في ذلك الوقت شعر بعذاب الأعوام التي كرت في الشقاء والتعب يتجمع ليرسم له صورة صروعة كيا ينتقم ، فلم يمْ في ليلته تلك ، حتى إذا كان الصباح خرج مبكراً يسير فرأى «سيمونيش» جاثياً بقرب السور يحفر حفرة كبيرة ثم يغطيها بقطعة من الصفيح ... شاهد كل ذلك ثم سار ببطء دون أن يتكلم ، ولكن سيمونيش لحق به وأمسكه قائلاً :

— إنني أحفرها لأستطيع أن أهرب عند الفجر ... وإنني أطلب منك الصمت أيها الأب ... سنهرب سوياً ... أما إذا اعترفت لأحد فإنهم سيسلبونني الحياة ولكن بعد أن أكون قد قتلتك نظراً أكسينوف بكركه نحو ذلك الشخص الذي سلبه الحياة وقال :

— شكراً لك ... ليست لدى رغبة في الحرب وليست هناك فائدة من قتلي ... لقد قتلتني حياً ذلك الذي وضع خنجره في حقائبي ... من يدري ؟ ربما

— أخبرني ... هل تعرف شيئاً عن أمرة التاجر «أكسينوف»

— طبعاً ... إنهم أغنياء جداً ... وأبوم هنا على ما أعلم

ولكن عرفني أيها الأب كيف جئت إلى هنا ؟ كان «أكسينوف» لا يرغب في الحديث عن نفسه .. وما جدوى الحديث عن النفس ؟ .. ولكنه عند ما عرف أن هذا الرجل من قريته ، بل ويعرف كل شيء عن أسرته اقتنع بقص قصته عليه ... حكى له كيف جاءوا به إلى السجن ظمأً وكيف أهملوه بقتل صديقه كذباً ... وكيف دسوا له خنجراً دامياً .

وعند ما فرغ أكسينوف من قصته لاحت الدهشة في عيني الرجل وتتم بصوت خافت : — إذن هو أنت أكسينوف ... حقاً إنه من الغرابة أن نلتقي ...

وعند ما تقابلا مرة أخرى سأل السجين أكسينوف :

— ألا أستطيع أن أؤدي لك خدمة ؟ — ترى هل عرفوا القاتل الحقيقي ؟ ... — لقد وجد الخنجر الذي قُتل به صديقك في أممتك فن ذا الذي وضعه فيها ... ؟ شعر أكسينوف أن محدثه يعرف أكثر مما يظهر ... بل قد يكون هو الذي وضع ذلك السلاح الملون في أممته دون أن يشعر ... فهز رأسه ببطء ومضى في حاله ...

أي أفكار ناء تحتها المسكين وهو راقد في فراشه يفكر ... لقد أخذت الصور تتراحم على رأسه الكليل ... رأى زوجته وهي تمحده ... وهي

كفت أنت ... إن الله هو الذي يعرف

وسار في طريقه وفي عينيه دموع حارة

واكتشف مدير السجن الحفرة فراح يسأل

الحرس والنقيين دون جدوى فلم يكن يعرف من

أمرها غير أكسينوف وحافرها

ولما يش نادى أكسينوف وسأله إذ كان يمهّد

فيه الصدق :

— أيها الأب من الذي حفر تلك الحفرة ؟

كانت أمامه فرصة يستطيع أن ينتقم فيها من

ذلك الذي دفع به إلى السجن ولكنه ناجى نفسه :

— هل أنتقم منه ؟ سيشتقونه ... وقد يكون

ظني خاطئاً إذ قد لا يكون هو ... أى فائدة تراها

ستمود عليه إن هو فعل ؟

وطال صمته بينما كان (سيمونيش) ينظر إليه

بخوف ... وأخيراً تكلم :

— إنك يا حضرة المدير بشر مثلي ... ولقد

أقسمت ألا أشكو لبشر أو أشكو بشراً ... وفي

استطاعتك أن تفعل بي ما شئت فلن أنطق باسم

الفاعل ...

وفي تلك الليلة لم ينام أكسينوف .. كان يفكر

ويفكر ... وحقاً شعر بأنفاس قريبة منه فقام من

فراشه فراحه أن يرى سيمونيش أمامه فصاح :

— ماذا تريد أيضاً ؟

— إيفان أكسينوف ... إنني أطلب غفرانك

— من ماذا ؟

— أنا الذي قتلت صديقك ووضعت الخنجر

في حقيقتك

لم يعرف ما يقوله ... وارتجف وهو ينازع

أحاسيسه بينما سجد سيمونيش صائماً :

— اغفر لي ... من أجل الله ... امنحني

غفرانك ... سأعترف لهم وسيطلقون سراحك

فأجاب أكسينوف ببطء :

— إنه من السهولة أن تتحدث الآن عن إطلاق

سراحي ... ولكن تصور ستة وعشرين عاماً أقضيها

هنا ... كيف أخرج الآن ؟ وهل سيعرفني

أولادي ؟ لا ... لن أخرج

لم يجب الآخر بل ضرب الأرض برأسه باكية

وهو يصيح كطفل صغير :

— إيفان ... اغفر لي ... لم أعرف أنني أدفعك

نحو هذا المصير ... إنني أندم ... أقسم لك ...

أوه ... اغفر لي ... اغفر لي أيها الأب

وراح يبكي بكاءً مراراً ... فبكي أكسينوف معه

وهو يقول :

— لينفر الله لك أيها الذي هدمت ههنا

وسعادة أسمى ... لينفر الله لك أيها الذي مكثت

طوال أيامي أدعو الله أن ينتقم منك دون أن أعرفك .

ولكنني الآن أرثي لك ... لطالما اشتاقت نفسي

إلى الخروج من هذا السجن إلى حيث منزلي وأمرتي

أما الآن فليست لدي أية رغبة في الحياة ... ماذا

سيفعل العالم برجل مهدم عاش كل ذلك العمر الطويل

بعيداً عنه ؟ إنني لا أود الحرية بل أريد قضاء بقية

أيامي أعيش متأملاً في سر عدالة الله ... ومعرفة

خواطر ونفوس من يحيطون بي ...

وعند ما صدر الأمر بإطلاق سراحه بعد

أن اعترف سيمونيش بجريمته كان ينازع سكرات

الموت ...

لقد بكاه الجميع ... وحزنوا عليه ... ولكن

سيمونيش كان أكثرهم بكاءً وأشدّهم حزناً وهو

يودع جثمانه الوداع الأخير ...

مصطفى متعل